إسـطفـانـوس والإيـمـــان حتّـى الاســتشــهــاد

الأب أيوب شهوان
أستاذ مادّة الكتاب المقدّس،
جامعة الروح القدس،
الكسليك

مقدّمة

"إسطفانوس" الذي "كُلِّلَ" جبينه (Στεφανος)[1] بإكليل الملوك مكافأةً له على جهاده لأجل المسيح يسوع "الجهادَ الحسن" (٢ تيم ٤: ٧-٨)، كان، في الواقع، البطلَ الأوّلَ في مسيرة الاستشهاد المتواصلة دون هوادة منذ الشهيد الأوّل الربّ يسوع[٢] وحتّى الساعة، إذ واجه غيظَ الخصوم الذين كان محرِّكوهم الرئيسيّون أعضاءَ السنهدريم[٣]، فاستحقّ أن يتأمّل وجه المخلّص قائمًا إلى يمين الآب، كما يصفه كاتب أعمال الرسل إذ يقول: "فحَدَّقَ إلى السَّماء وهُو مُمتَلِئٌ مِنَ الرُّوحِ القُدُس، فرأَى مَجدَ الله ويسوعَ قائِمًا عن يَمينِ الله. فقال: ها إنِّي أَرى السَّمواتِ مُتَفَتِّحَة، وابنَ الإِنسانِ قائِمًا عن يَمين الله" (أع ٧: ٥٥-٥٦).

وكما شهد قائد المئة أنّ يسوع "كان في الحقيقة ابنَ الله" (مت ٢٧: ٥٤)، نستطيع التأكيد بطريقة مشابهة أنّ إسطفانوس، مولودُ الإيمان، كان في الحقيقة ابنًا لله!

سنعرض في ما يلي ما يفيد في إبراز إيمان إسطفانوس ومفاعيله، إن في مواقفه وإن

1 Στεφανος, in F. BROWN, *A Hebrew and English Lexicon of the Old Testament*, Clarendon Press, Oxford 1979;

. مجموعة من الباحثين، أعمال الرسل، تعريب بولس الفغالي، دار المشرق، بيروت ٨٨٧ ، ص ٤٢

٢ "وُلدتُ وأتيتُ العالمَ لأشهدَ للحقّ" (يو ١٨: ٣٧)

٣ جاء في قاموس الكتاب المقدّس التعريف التالي: "السنهدريم أو السنهدرين هو مجلس اليهود الكبير في أيام حياة مخلّصنا على الأرض، وقد أطلق المؤرّخون هذا الاسم على هذا المجلس باعتباره المحكمة العليا للأمّة اليهوديّة. كان يمثّل الشعبَ أمام الرومان، ويتكوّن من واحد وسبعين عضوًا، سبعون منهم مثل عدد الشيوخ الذين عاونوا موسى، والحادي والسبعون هو رئيس الكهنة . قد قبض مجلس السنهدريم على المسيح وحاكمه (مر ١٤: ٤٣ ; مت ٢٦: ٥٩). توقّف عمل السنهدريم بعد عام ٧٠ م.، أي بعد خراب أورشليم . كان نيقوديموس عضوًا في مجمع السنهدريم".

في خطابه الطويل أمام السنهدرين (٧: ٢-٥٣).

١ — صراعٌ داخليّ وَحَلٌّ نموذجيّ!

يشكّل أع ٥: ٤٢ ملَخَّصًا وجيزًا يختتم مرحلةً في تَقَدُّم رواية لوقا، وما قبلها، نشهد بحسبه صراعًا يضع كنيسة أورشليم في مواجهةٍ مع السنهدرين، لكنّ هذا الوضع لم يَحُلْ دون ارتياد أفرادِ تلك الكنيسة هيكلَ أورشليم حيث، بالإضافة إلى العبادة والصلاة، كان يُلقَى التعليم، وتُعلَن البشارة السارّة؛ هذان الفعلان، "علّم" (....؛ رج أع ٢: ٤٢؛ ٥: ٤٢) و"أعلن البشرى" (καὶ ἐλάλουν τὸν λόγον τοῦ θεοῦ؛ رج أع ٤: ٣١؛ ٥: ٤٢)، يميّزان تعليم يسوع بالذات في الهيكل: "وكانَ ذاتَ يومٍ يُعلِّمُ (διδάσκω) الشَّعبَ في الهيكلِ ويُبشِّرُه (εὐαγγελίζω)" (لو ٢٠: ١أ).

لكنّ خصامًا أكثر جذريّة سيقع بعد ذلك داخل الجماعة الكنسيّة بالذات[٤]: يشير أع ٦: ١ إلى أنّ "عدد التلاميذ كَثُر" (πληθύνω)، وأع ٦: ٧ إلى أنّ "جمعًا كثيرًا (πολύς τε ὄχλος) من الكهنة أخذوا يستجيبون للإيمان (πίστις)"؛ ملفتٌ للانتباه هذا "النموّ" الذي يُدرجُه لوقا في أوّل خبر إقامة الشمامسة السبعة وفي آخره (٦: ١-٧)، ليوكّد أنّ النزاع الذي حصل، والذي كان بالإمكان أن يتسبّب بأذى للكنيسة، قد تمّ تجاوزه، والبرهان على ذلك هو تواصل هذا النموّ (آ ٧)، الأمر الذي يعني أنّ الإيمان كان يملأ الألباب، ويوجّه العقول ويحرّكها في الاتجاه السليم والصحيح.

مع ذلك، ومن أجل تحاشي أن يصبح الصراع المذكور جسيمًا ومؤذيًا، تصرّف الرسل بحكمة، فدعوا إلى عقد اجتماع عامّ (٦: ٢-٤) من أجل إيجاد حلّ عملانيّ معقول ومقبول، قضى بتقاسم المسؤوليّات وتوزيع العمل في خدمة الجماعة (آ ٥-٦)، الأمر الذي سيؤدّي إلى بقائها متفاهمةً ومتناغمة ومتّحدة.

لقد تطلّب حلّ هذه المعضلة اختيار سبعة "رجال مملوئين روحًا قدسًا وحكمة" (أع ٦: ٣)[٥]، يقومون بـ"خدمة الموائد" (آ ٢ب)، فيتمكّن الاثنا عشر من الانصراف إلى "خدمة

٤ رج شارل ليبلاتنييه، سفر أعمال الرسل، تعريب أيوب شهوان، دار بيبليا للنشر، عنكاوا، العراق ٢٠١٥، ص ٧٩-٧٦.

٥ لنتذكّر يوسف بن يعقوب الذي أضحى مدبّرًا في أرض مصر (تك ٤١: ٣٣-٣٨).

الكلمة (....)" (آ ٤). يشير الانفتاح على الوثنيّين (رج ٢١: ٨)، هنا وفي هذا السياق، إلى أنّ السبعة الذين تمّ اختيارهم يحملون كلُّهم أسماء يونانيّة، وعلى رأسهم إسطفانوس: "استحسنَتِ الجماعةُ كلُّها هذا الرَّأي، فاختاروا إسطفانُس، وهو رَجُلٌ ممتلئٌ مِنَ الإِيمانِ والرُّوحِ القدس، وفيليبُّس وبُروخورُس ونيقانور وطِيمون وبَرمَناس ونيقُلاوُس وهو أَنطاكيٌّ دخيل" (آ ٥).

تفيدنا آ ٦ أنّ احتفالاً ليتوجيًّا أُقِيم من أجل تنصيب الرجال السبعة: "ثُمَّ أَحضَروهم أَمامَ الرُّسل، فصَلَّوا ووضعوا الأَيديَ عليهم"؛ في أماكن أخرى ستواكب دعوةُ الروح القدس وضعَ الأيدي (رج أع ٨: ١٧؛ ٩: ١٧؛ ١٩: ٦).

من خلال هذه الرواية رمى لوقا إلى أن يعطي نموذجًا مثاليًّا لحلّ صراع يطرأ في الكنيسة سيُعِينُ الرسلَ لاحقًا في مجمع أورشليم على إيجاد الحلول السلاميّة للمعضلات الطارئة (أع ١٥). في ذلك كلّه نرى أنّ الإيمانَ هو الأساس السليم والمحرّكُ الأساسيّ في الحلول المعتَمَدَة، لأنّه يُفيض في المؤمن النعمة والقوّة والحكمة والبهاء الملائكيّ؛ هذا ما دفع لوقا إلى أن يصف إسطفانوس بأنّه "امتلأ من النعمة والقوّة" (٦: ٨)، وبأنّ "في كلامه حكمة وروحًا" (آ ١٠)، وبأنّ "وجهه كأنّه وجه ملاك" (آ ١٥)؛ وما نَقْلُ خطابِ أوّلِ الشهداءِ سوى تأكيدٍ، ليس فقط على سعة معرفته بالتاريخ المقدّس، بل على عظمة إيمانه الذي تجلّى في كونه شاهدًا مقتدرًا لكلمة الله عبر صنعه معجزات وآيات بين الشعب، وعلى أنّه صِنْوُ الرسل بالذات، الذين، "لِما كانَ يَجري عن أَيديهم مِنَ الأَعاجيبِ والآيات، استَولى الخوفُ على جميعِ النُّفوسِ" (٢: ٤٣)؛ ويؤكّد لوقا ذلك ثانيةً في ٥: ١٢: "وكانَ يَجري عن أَيدي الرُّسُلِ في الشَّعبِ كثيرٌ مِنَ الآياتَ والأَعاجيب".

عندما رَكَمَ لوقا في ٧: ٨-١٠، علاوةً على ذكر الآيات والمعجزات، التعابيرَ "نعمة"، و"قدرة"، و"حكمة"، أدرج بالفعلِ ذاتِه موازاةً، ليس فقط مع الرسل، بل مع الربّ يسوع بالذات: "وكانَ الطِّفلُ يَترَعرَعُ ويَشتَدُّ ممتلئًا حكمة، وكانت نعمةُ الله عليه" (لو ٢: ٤٠)؛ ويتابع: "وكانَ يسوعُ يتسامى في الحكمةِ والقامةِ والحظوةِ عندَ اللهِ والنَّاس" (آ ٥٢)؛ وسيواصل هذه الموازاة حتّى آخر الإخبار عن محاكمة إسطفانوس وعن رجمه حتّى الموت.

٢ — من التذمّر إلى التراضي

لقد حصلت إذًا تناقضات بشريّة ذات بُعْدٍ معيشيّ يوميّ في جماعة أورشليم، إذ "أخذَ اليهودُ الهلِّينيُّونَ يَتَذَمَّرونَ على العبرانيِّين لأنَّ أَراملَهم يُهمَلْنَ في خدمةِ توزيعِ الأَرزاقِ اليوميَّة" (أع ٦: ١)[6]، لأنّ الرسل كانوا قد احتفظوا لأنفسهم بـ"الصلاة وبخدمة الكلمة" (ῇ προσευχῇ καὶ τῇ διακονίᾳ τοῦ λόγου ؛ آ ٤)؛ فانطلاقًا من قناعتهم الصريحة بأنّه "لا يَحسُنُ بِنا أَن نَترُكَ كَلِمَةَ اللّه (οὐκ ἀρεστόν ἐστιν ἡμᾶς καταλείψαντας τὸν λόγον τοῦ θεοῦ) لِنَخدُمَ على الموائِد (διακονεῖν τραπέζαις)" (٦: ٢)، دعوا الجماعة إلى اختيار سبعة مؤمنين ذوي سمعة حسَنة، ومقبولين من الجميع، ومملوئين روحًا وحكمة ليُقيموهم على هذا العمل (٦: ٣)، فاختارت الجماعة أوّلاً إسطفانوس، "ثُمَّ أَحضَروهم أَمامَ الرسل، فصَلَّوا ووضعوا عليه الأيدي" (٦: ٦)[7]. سيبقى هَمُّ نَقْلِ كلام الله وخدمتها هَمًّا أساسيًّا في نشاط الرسل خاصّةً والكنيسة الأولى عامّةً.

وكما أوردنا أعلاه، إنّ أسماء هؤلاء السبعة المختارين هي يونانيّة (٦: ٥)، ومن خلال هذا نستنتج أنّ انفتاحًا هامًّا كان قد تحقّق باتّجاه العالَم الهلّينيّ[8]. هم "خدّام" (διακονοι)، ولكن إذا نظرنا عن قريب تبيّن لنا أنّ فيليبّس الشمّاس، أحد هؤلاء السبعة، مثلاً، قد ردّ إلى الإيمان (πίστις) الوزيرَ الحبشيّ وعمّده (٨: ٢٦-٣٩)؛ قبل ذلك، كان الرسل قد أرسلوه للتبشير: "فنزَلَ فيليبُّسُ مدينةً مِنَ السَّامرة، وجعَلَ يُبَشِّرُ (εκηρυσσεν) أَهلَها بِالمَسيح" (أع ٨: ٥)، الذين "قَبِلوا كلمةَ الله" (٨: ١٤)، وعمّد (βεβαπτισμενοι) هناك الجموع "باسمِ الرَّبِّ يسوع" (٨: ١٦)، وجرت على يده معجزات (σημεια) عديدة (٨: ٦-٧)؛ بعد ذلك أحلّ بطرسُ ويوحنّا الروحَ القدس على المؤمنين هناك: "فوَضَعَا أَيدِيَهما عليهم، فنالوا الرُّوحَ القدسَ" (٨: ١٧). يبدو إذًا أنّ "شمامسة" الكنيسة الأولى كانوا يقومون بخدمة كنسيّة أوسع من خدمة الأرامل، وممّا سيُوكَلُ إلى "شمامسةِ" العصور التي تلت عصرَ الرسل. نشير إلى أنّ المفردات المستعمَلة هنا هي ذات دلالة هامّة من حيث إبراز الدور المشابه إلى حدٍّ ما لدور الرسل في خدمة الشمامسة السبعة المذكورين، وتحديدًا جَذْب الناس إلى الإيمان بالربّ يسوع.

6 Luke Timothy JOHNSON, *The Acts of the Apostles*, Sacra Pagina, The Liturgical Press, Collegeville, Minnesota 1992, p.104-106. 110-113.

٧ شارل ليبلاتنييه، المرجع ذاته، ص ٧٧ ي.

٨ مجموعة من الباحثين، أعمال الرسل، ص ٣٨-٣٩؛
C. F. D. MOULE, "Once More, Who were the Hellenists?", *ExpT* 70 (1958-5) 100-102

٣ — "إسطفانوسُ مملوءٌ إيمانًا وروحًا قدسًا" (٦: ٥)

كان إسطفانوس المختار "يأتي بأَعاجيبَ وآياتٍ (τέρατα καὶ σημεῖα) مُبينةٍ في الشَّعب" (٦: ٨ب)، لأنّه كان "مملوءًا نعمة وقوّة" (٦: ٨أ)؛ تشير الكلمتان "نعمة وقوّة" (χάριτος καὶ δυνάμεως) إلى امتلاك الروح القدس، لذا كان يبشّر بالإنجيل؛ هذا ما يفسّر دخوله في جدال مع بعض العبرانيّين الآتين من العالم الهلّينيّ، الذين كان لهم في أورشليم أكثر من مَجْمَعٍ، وواحدٌ من هذه المجامع كان للمحرَّرين (ἐκ τῆς συναγωγῆς τῆς λεγομένης Λιβερτίνων؛ ٦: ٩أ)، أي لعبيد معتَقين؛ آخَرون كانوا من القيروان، والإسكندريّة، وقيليقيا، وآسيا الصغرى (٦: ٩ب).

في مجادلة إسطفانوس مع الخصوم كان ينتصر بفضل "الحكمةِ والروح" (σοφίᾳ καὶ πνεύματι): "فلَم يستَطيعوا أَن يقاوموا ما في كلامِه مِنَ الحكمةِ والرُّوح" (آ ١٠)؛ بهذا الروح كان ينطق، كما سيفعل لاحقًا مع القدّيس بولس. ولأنّ كلامه كان يتعارض مع العقيدة المشتركة، فتّش العبرانيّون الهلّينيّون[9] عن عبرانيّين محلّيّين، أكثر تمثيلاً منهم لدى السلطات الدينيّة، وحملوهم على اتّهام إسطفانوس لدى الجمع المغفّل، الذي يمكن التلاعب بمشاعره وتحريكها بسهولة، ولدى الكهنة وعلماء الشريعة، الذين لن يكونوا في اتّهاماتهم لإسطفانوس وفي أحكامهم عليه أفضل حالاً ممّا فعلوا قبلاً بيسوع، لأنّ الشبهات كانت تدور حول استقامتهم العقائديّة والمسلكيّة والاجتماعيّة. لذا "أَثاروا الشَّعبَ والشُّيوخَ والكتبة، ثُمَّ أَتَوهُ على غفلةٍ منه، فقَبَضوا عليه، وساقوه إِلى المجلس" (آ ١٢). هكذا إذًا تمّ إلقاء القبض على إسطفانوس، وإحضاره أمام السنهدريم الذي كان يسيطر عليه الصدّوقيّون. يُلاحَظُ هنا أنّ الفرّيسيّين لم يظهروا هنا أيضًا في ما كان يجري، تمامًا كما جرى عندما أُلقِيَ القبض على الربّ يسوع.

٤ — التهمة الكاذبة

"إنّنا سمعناه يتكلّم كلام تجديف على موسى وعلى الله" (٦: ١١). إنّها التهمة الأكثر

9 H. J. CADBURY, "The Hellenists", Beginnings 5:59-74.

جسامة التي تمّت صياغتها. وإذ كان إسطفانوس يبشّر بالربّ القائم من الموت، كان يبرهن في الوقت عينه بأنّ يسوع قد تمّم وعود العهد القديم كلّها، كما جاء على لسانه هو عندما قال: "هذا هو الكلامُ الَّذي كَلَّمتُكُم به وأَنا بَعْدُ معكُم: أَنَّهُ لا بُدَّ أَنْ يَتِمَّ جميعُ ما هو مكتوبٌ عنِّي في ناموسِ موسى والأَنبياءِ والمَزاميرِ..." (لو ٢٤: ٤٤-٤٥). لهذا السبب، وبالفعل ذاته، فإنّ المسيح القائم من الموت هو "يسوع، المسيح الإله"، الذي أظهر ذاتَه في القيامة أنّه ابنُ الله وأنّه الله.

إنّ التُهَمَ المساقةَ والشكاوي المقدَّمةَ تتضمّن بالنتيجة حكمًا بالإعدام على إسطفانوس، وفق ما تنصّ عليه الشريعة، مع التذكير بأنّ هذا الحكم الأقصى كانت السلطات الرومانيّة تحتفظ به لنفسها، ولم يكن يحقّ لليهود بالتالي أن يفعلوا.

إسطفانوس هو إذًا متَّهَم:

- بأنّه نبيّ كاذب، وبحسب تث ١٨: ٩-٢٢ هو يستحقّ الموت؛

- وبأنّه حرّف الشريعة، وبحسب تث ١٣: ١-٦، هو ارتكب جريمة عقوبتها الإعدام؛

- وبأنّه أقنع آخَرين بعبادة الأصنام، وبحسب تث ١٣: ٧-١٩، وهذه جريمة يجب اقتلاعها من جذورها عن طريق إعدام المجرم.

- لم يتمَّ فقط إيجاد شهود زور أكّدوا الاتّهامات الموجَّهة إلى إسطفانوس، بل أضافوا إليها مسألة المكان الأقدس، أي الهيكل، قالوا: "إنّ هذا الرجل لا يكفّ عن التعرّض بكلامه[١٠] لهذا المكان المقدّس وللشريعة" (٦: ١٣)، وبالتالي هو ضدّ العبادة الإلهيّة، وبذلك كان يورد نوايا إنسان محكوم عليه بالإعدام، وتمّ تنفيذ هذا الحكم فيه، هو "يسوع الناصريّ"، الذي "كان سينقض هذا المكان، ويبدّل عاداتِ تقاليد موسى" (٦: ١٤). إنّها التهمة الموجَّهة في المحاكمة إلى يسوع (رج مت ٢٦: ٦١ والنصوص الموازية). بالتأكيد، كان يسوع قد تفوّه بكلام من هذا النوع، لكنّه كان يتكلّم على "هيكل جسده"، على آلامه وقيامته (يو ٢: ١٩-٢٢)، وما فعله إسطفانوس هو أنّه نقل هذا الكلام بكلّ أمانة. بيد

١٠ ρὴματα Βλασφημα، بالمعنى الأسوأ للكلام.

أنّ المحكمة القاسية والظالمة ركّزت توجُّهَها ضدّ إسطفانوس، وبالرغم من ذلك فإنّ أعضاءها رأوا وجهَه "وكأنّه وجه ملاك" (٦: ١٥)، فبدا بالتالي المؤمنَ الصَلْبَ المستعدَّ، وبقوّة الروح القدس، للشهادة ليسوع لأنّه كسيّده "أحبّ إلى الغاية" (يو ١٣: ١).

٥ – خطبة إسطفانوس التاريخيّة والبيبليّة

باشر رئيس المحكمة بالاستجواب حول الوقائع، وفقًا للإجراء الذي كان يجب أن يتأكّد بشكل صارم إذا كانت هناك خطايا: "فسأله عظيم الكهنة: هل هذا صحيح؟" (٧: ١). عندها بدأ إسطفانوس خطبةً طويلة[11]، شكّلت في الوقت عينه دفاعًا عن الإيمان من قِبَلِه، وحجّةً بالمقابل للحكم عليه من قِبَلِ الخصوم (٧: ٧-٥٣). في هذه الخطبة استعرض إسطفانوسُ، بَطَلُ الإيمانِ بامتياز، تاريخَ إسرائيل، الذي هو بحدّ ذاته بمثابة كرازة (κηριγμα) العهد القديم، من إبراهيم وحتّى الوضع الحاضر في أيّامه، مُبرزًا بوضوح وجلاء أنّه تاريخ عدم الأمانة تجاه وعدِ الذي كان ينبغي أن يأتي؛ بالتالي نحن أمام مقاومة فعليّة متواصلة للروح القدس، كما جاء على لسان إسطفانوس: "إنّكم تقاومون أبدًا الروح القدس" (٧: ٥١ب).

إثر ذلك راح إسطفانوس يتّهم القضاة الذين كانوا يحاكمونه بأنّهم دومًا أولئك الذين كان الربّ قد وصفهم بأنّهم "قساة الرقاب، وغُلْف القلوب والآذان" (Σκληροτράχηλοι καὶ ἀπερίτμητοι καρδίαις καὶ τοῖς ὠσίν ؛ ٧: ٥١أ)، أو بطيئون في فهم أقوال الربّ وطرقه (رج لو ٢٤: ٢٥؛ ٣: ٢٤؛ مر ٤: ١٣)، ومقاومون أبدًا للروح القدس (رج خر ٣٢: ٩؛ ٣٣: ٣، ٥؛ لا ٢٦: ٤١؛ إر ٩: ٢٦؛ ٦: ١٠؛ أش ٦٣: ١٠؛ ٢ أخ ٣٠: ٧-٨). هكذا كان الآباء في البرّيّة، وفي الغالب أيضًا في أرض الميعاد، وأبناؤهم هؤلاء ليسوا الآن أقلَّ منهم: "مِن دمِ هابيلَ إلى دمِ زكريَّا الَّذي هَلَكَ بينَ المذبحِ والهيكل. أَقولُ لكُم: أَجَل، إنَّه سَيُطالَبُ به هذا الجيل" (أع ٧: ٥٢؛ رج ٢ أخ ٣٦: ١٦؛ متّ ٢٣: ٣١؛ يو ٨: ٤٤؛ أع ٣: ١٤؛ ٢: ٢٣). الآباء اضطهدوا الأنبياء، وأبناؤهم على خطاهم، قد أسلموا البارَّ إلى الموت (آ ٥٢). لقد أخذوا الشريعة التي أعلنها الملائكة ولم يحفظوها (آ ٥٣؛ أع ٧: ٣٨؛ ١٥: ١٠؛ غل ٣: ١٩؛ عب ٢: ٢؛). إثر ذلك جاءت ردّة فعل الحاضرين غاضبة

11 Luke Timothy JOHNSON, *op. cit.*, p. 114-138.

وعنيفة جدًّا: "فلمّا سمعوا ذلك، استشاطت قلوبُهم غضبًا، وجعلوا يصرفون الأسنان عليه" (آ ٥٤؛ رج أع ٥: ٣٣؛ أي ١٦: ٩؛ مز ٣٥: ١٦؛ ٣٧: ١٢؛ ١١٢: ١٠).

٦ — إسطفانوس المملوء روحًا قدسًا وإيمانًا يرى مجدَ الله فيشهد

كان إسطفانوس مملوءًا روحًا قدسًا وإيمانًا، فَنَعِمَ بما قد نَعِمَ به أشعيا النبيّ قبلاً (أش ٦: ١-٢؛ رج يو ١٢: ١٤)، فرأى مجدَ الله يحيط بيسوع القائم إلى يمين الآب: "فحدّقَ إلى السماء وهو ممتلئ من الروح القدس، فرأى مجدَ الله، ويسوع قائمًا عن يمين الله" (٧: ٥٥).

يتعلّق الأمر الآن بالمسيح القائم من الموت، والذي يجلس إلى يمين الآب إلى الأبد (مر ١٦: ١٩؛ مز ١١٠: ١) كوعد قد أصبح حقيقةً. يشير "الوقوف" هنا إلى أنّ يسوع هو على وشك أن يتحرّك ويتدخّل لصالح إسطفانوس، لذلك يعلن هذا الأخير بكلام صريح: "ها (ἰδού، تشير دائمًا إلى معجزة إلهيّة) إنّي أرى السماوات مفتوحة"؛ هذا ما حصل لحزقيّال (حز ١: ١)، ولاحقًا للربّ يسوع عند اعتماده: "وبينما هو خارجٌ مِنَ الماء رأَى السَّماواتِ تَنشَقّ، والرُّوحَ يَنزِلُ عليه كأَنَّهُ حمامةَ " (مر ١: ١٠). "السماوات"، رمز الألوهة"، تنفتح هنا لتستقبل إسطفانوس الظافر بفضل إيمانه وشهادته.

"وابن الإنسان قائمًا عن يمين الله" (٧: ٥٦ب): إنّها "شهادة" (μαρτυρία) إسطفانوس، والاعتراف الأعظم بألوهة يسوع ابن الإنسان، الذي يكشف أنّه الشخص الإلهيّ والبشريّ، سيّد مصير العالم والأمم (رج دا ٧: ١٣-١٤؛ رج مت ٣: ١٦؛ ٨: ٢٠؛ لو ٣: ٢١؛ يو ١: ٥١؛ أع ١٠: ١١؛ رؤ ١٩: ١١). إنّه الاعتراف الأعظم ذاته الذي فاه به يسوع أمام السنهدريم ذاته، مع فارق، هو أنّ يسوع يَعِدُ برؤية ابن الإنسان جالسًا إلى يمين القدرة (أي الآب)، قائمًا من الموت، ممجَّدًا (لو ٢٢: ٦٩). يَرِدُ اللقبُ "ابن الإنسان" هنا فقط خارج الأناجيل، لا على لسان يسوع بل على لسان إسطفانوس شاهده المؤمن الأمين. لقد رأى إسطفانُ، قبَيل استشهاده، يسوعَ في بهاء مجده، كما سبق ورآه يعقوب وبطرس ويوحنّا عند التجلّي على طور طابور (لو ٩: ٣٢)، ولاحقًا بولس على طريق دمشق (أع ٩: ٣)؛ لقد رآه واقفًا ، وكأنّي به يهمّ لاستقبال شهيده الحبيب إسطفانوس، ممّا يعني أنّ الجماعة المسيحيّة الأولى، إذا كانت تعتقد وبإيمان عميق أنّ المؤمن يدخل حالاً مجدَ

الآب السماويّ، فكم بالأحرى مَن سُفِكَ دمُه لأجل إيمانه بالربّ يسوع!

٧ — شهادة إيمان حتّى الاستشهاد

كما حصل مع يسوع، جلبت هذه الشهادة على إسطفانوس الحكمَ بالموت[١٢]. بدايةً، احتجّ الحاضرون بصراخ ضدّ "التجديف"، ثمّ قبضوا على إسطفانوس (آ ٥٧)، واقتادوه خارج المدينة، إلى مكان منفرد، وقتلوه رجمًا بالحجارة (آ ٥٨أ)[١٣]. الرجم هو بالضبط عقاب من يجدّف على اسم الله (لا ٢٣: ١٠-١٥). من أجل المبادرة بالسرعة القصوى إلى عمليّة الإعدام الغوغائيّ، تخلّص منفذو الإعدام من ثيابهم، التي حفظها "شابٌّ اسمه شاول" (آ ٥٨ب)، الذي كان يضطهِد يسوعَ بحماسة، كما سيقول له يسوع على طريق دمشق، عندما سأله شاول قائلاً: "مَن أنتَ يا ربّ؟"، وأجاب الربُّ: "أَنا يسوعُ الَّذي أَنتَ تَضطَهِدُه" (أع ٩: ٥).

٨ - بقوّة إيمانه واجه إسطفانوس النميمة والتّهم وغفر

اتُّهِم إسطفانوس بالتجديف، ودبّر خصومُه شهودَ زورٍ بأسهل ما يكون: "ثُمَّ أَحضَروا شهودَ زُورٍ يقولون: هذا الرَّجُلُ لا يَكُفُّ عنِ التَّعرُّضِ بكلامِه لهذا المكانِ المقدَّسِ وللشَّريعة؛ فقَد سَمِعناهُ يقولُ: إِنَّ يسوعَ ذاك النَّاصريَّ سيَنقُضُ هذا المكان، ويُبَدِّلُ ما سَلَّمَ إِلينا موسى مِن سُنَن" (أع ٦: ١٣-١٤؛ رج إر ٢٦: ١١)؛ لقد شهدوا زورًا مخالفين بذلك وصيّة الربّ القائلة: "لا تشهد بالزور" (خر ٢٠: ١٦؛ تث ٥: ٢٠)؛ هكذا بالتمام اتُّهِم يسوع قبلاً: "فأَخَذَ الكتبةُ والفرّيسيُّونَ يُفكِّرونَ فيقولونَ في أَنفسِهم: مَن هذا الَّذي يتكلَّمُ بالتَّجديف؟" (لو ٥: ٢١).

لقد وقع إسطفانوسُ ضحيّةَ شهودِ زورٍ (أع ٦: ١١، ١٣-١٤)، كما حصل ليسوع قبله (مر ١٤: ٥٦ي)، وكانت التّهمة تشدّد على أنّه تكلّم ضدّ المكان المقدّس (أع ٦: ١٣). واستنادًا إلى نهاية خطبة إسطفانوس (أع ٧: ٤٦-٥٠)، من غير المستبعد أن يكون إسطفانوس قد تفوّه بأقوال انتقد خلالها ديانة شعبه المركّزة، وبشكلٍ فيه الكثيرُ من المغالاة، على

12 Luke Timothy JOHNSON, *op. cit.*, p. 138-144.

13 M. E. BOISMARD, « Le martyre d'Étienne (Ac 6, 8 – 8,2) », RScR 69 (1981) 181-194.

الهيكل الذي شادته أيدي البشر، وكأنّي به يشرح الأقوال التي كان يسوع قد فاه بها حول الهيكل، ورأوا فيها تجديفًا، لأنّ جماعة أورشليم كانت ما زالت تبدي تعلّقًا شديدًا بالمكان المقدّس هذا. ستُوجَّه تهمة مماثلة مزدوجة إلى بولس: "هذا هو الرجل الذي يعلّم كلَّ إنسان، وفي كلّ مكان، ما يخالف الشعبَ والتوراة وهذا المقام، بل قد أدخل يونانيّين إلى الهيكل فدنّس هذا المقامَ المقدّس" (أع ٢١: ٢٨). سيُتَّهَم بولس بما اتُّهِمَ به إسطفانوس (٦: ١١-١٤)، واتُّهِمَ به يسوع قبلاً (مت ٢٦: ٦١؛ يو ١١: ٤٧-٥٠).

بالرغم من هذه الوشايات والنميمة القاتلة، بدا إسطفانوس الماثل أمام السنهدرين ذا وجهٍ شبيهٍ بوجه ملاك (أع ٦: ١٥)؛ تستحضر هذه الإشارة الرائعة تجلّي الربّ يسوع على الجبل، عندما "أَشَعَّ وجهُه كالشَّمس، وتلألأَت ثيابُه كالنُّور" (مت ١٧: ٢؛ رج لو ٩: ٢٩)، وقبل ذلك وجهَ موسى عندما كان نازلاً من الجبل، و"بشرة وجهه مشعّة" (خر ٣٤: ٣٥؛ رج ٢ كو ٣: ٧-١٨). نذكّر هنا أنّ موسى سيلعب دورًا محوريًّا في خطبة إسطفانوس (أع ٧: ١-٥٣).

سيتجلّى وجهُ إسطفانوس لدى رؤيته يسوع ومجد الله: "فقال: ها إنّي أرى السماوات منفتحة، وابن الإنسان واقفًا عن يمين الله" (أع ٧: ٥٦). لقد رأى يسوعَ في مجده، كما رآه بطرسُ ويعقوبُ ويوحنّا قبلاً على جبل التجلّي ("فعايَنوا مجدَه"؛ لو ٩: ٣٢)، وبولسُ لاحقًا على طريق دمشق: "وبينما هو سائرٌ، وقَدِ اقتَرَبَ مِن دمشق، إذا نورٌ مِنَ السَّماءِ قد سَطَعَ حولَه" (أع ٩: ٣).

نحن في الواقع أمام محطّة إيمانيّة استثنائيّة، سيّد الموقف فيها هو الشاهد الأمين ليسوع وللإيمان به؛ فوجهُه الشبيه بوجه ملاك يشهد على ذلك، لكن ليس هذا فقط، فخطبته ستكشف للقارئ كم كان هذا الرجل في الحقيقة وَليدَ المعرفة والإيمان. لقد حاول متّهموه أن يتصدّوا للروح القدس (أع ٧: ٥١)، كما فعل آباؤهم مرّات ومرّات من قبل، لذلك ندّد إسطفانوس المملؤ إيمانًا وجرأة بعدم أمانة بني إسرائيل المتواصلة بسبب قلّة إيمانهم، وكأنّي بمناوئيه يجهلون أو يتناسون أنّهم نسل إبراهيم المؤمن الذي بثّ الله معه عهدًا (٧: ٢-٨)، ولا يذكرون وجهَ يوسف في مصر (آ ٩-١٦) الذي ثبت في أشد الأوقات صعوبةً على الأمانة لإلهه، ويغفلون وجهَ موسى القائد والمحرِّر بقدرة الله وبثقته المطلقة به (آ ١٧-٤٣).

وإذا كان إسطفانوس قد أدرج موضوع الهيكل في خطبته (آ ٤٤-٥٠)، فلكي يستحضر

خيمة الشهادة (٧: ٤٤) التي شُيِّدَت في الصحراء، والتي رافقت الشعب في مسيرته وصولاً إلى أيّام داود، والتي سيحلّ مكانها هيكل أورشليم الذي شيّده سليمان (رج خر ٢٦؛ عب ٨: ٥؛ ٩: ٢٣). يعترض إسطفانوس على هذا الهيكل مستشهدًا بقول أشعيا بأنّ "العليّ لا يقيم في بيوت شادتها يد البشر" (آ ٤٨؛ رج أش ٦٦: ١-٢). هو يرمي من وراء ذلك إلى إبراز أولويّة الإيمان بالله ومحبّته ("يا بُنَيَّ، أعطني قلبك"؛ أم ٢٣: ٢٦)، بدلاً من الافتخار بالهيكل الحجريّ المبنيّ بيد الناس (رج مت ٢٤: ١)، والذي يمكن أن يتماهى مع العجل الذهبيّ: "فصنعوا في تلك الأيّام عجلاً، وقرّبوا للوثن ذبيحة، وفرحوا بما صنعت أيديهم" (أع ٧: ٤١؛ رج خر ٣٢: ٤-٦)؛ يبدو إسطفانوس وكأنّه يرمي إلى القول بأنّ بناء الهيكل قد يعادل وضع اليد على حضور الله[١٤]! سيقول يسوع للسامريّة: "صدّقيني، يا امرأة! تأتي ساعة وتعبدون فيها الآب، لا في هذا الجبل، ولا في أورشليم... ولكن تأتي ساعة، وقد أتت الآن، وفيها يعبد العابدون الحقيقيّون الآب بروح وحقّ؛ فالآب أمثالهم يبتغي عابدين" (يو ٤: ٢١، ٢٣). إنّها عبادة جديدة، تتمّ بقوّة الروح القدس، وتتوجّه نحو الآب، وتنبع من قلب عابق بالإيمان والمحبّة.

على هذا كان ينبغي أن يكون مستمعو إسطفانوس، الذين اضطُرَّ آخِرَ الأمر أن يصفهم بكلمات شبيهة بكلمات الأنبياء، قائلاً: "يا قساة الرقاب، يا غُلْفَ القلوب والآذان، إنّكم تقاومون أبدًا الروح القدس؛ فلأنتم كآبائكم" (أع ٧: ٥١؛ رج خر ٣٢: ٩؛ ٣٣: ٣، ٥؛ لا ٢٦: ٤١؛ إر ٩: ٢٦؛ ٦: ١٠؛ أش ٦٣: ١٠؛ ٢ أخ ٣٠: ٧-٨)، علمًا أنّه كان قد توجّه إليهم في أوّل الخطبة مناديًا إيّاهم "الإخوة والآباء" (أع ٧: ٢). لم يفعل إسطفانوس ذلك إلاّ لأنّه كان عليمًا بعدم قدرتهم على الانفتاح على الحقائق الروحيّة السميا التي ترقَى بالإيمان وبمحبّة الله والقريب إلى أعلى الدرجات، الأمر الذي جعلهم يسلمون البارّ ويقتلونه (٧: ٥٢). لقد فعلوا ذلك بيسوع لأنّهم لم يفهموا النبوءات، فقتلوا الناطقين بها (آ ٥٢)، ولم يحفظوا شريعة الربّ، بالتالي لم ينموا في الإيمان، ولم يعرفوا الحقّ، فاقترفوا المآثم، وارتكبوا المعاصي، وحرّفوا الحقائق، وضلّلوا البسطاء، وها هم الآن يتّهمون إسطفانوس باطلاً بأنّه يتكلّم ضدّ الشريعة.

مدهشٌ صفاءُ الذهن عند إسطفانوس، ومذهلةٌ قوّته الخارقة التي واجه بها وحيدًا كلّ خصومه، ورائعٌ منظره وقامته ووجهه الذي بدا للمحدّقين به كوجه ملاك! ومع هذا لم يدرك مستجوبوه ومحاكموه أيَّ شيء من هذا كلّه، فإنّهم، وعلى حدّ قول النبيّ إرميا،

١٤ مجموعة من الباحثين، أعمال الرسل، ص ٨.

"لهم عيون ولا يبصرون، ولهم آذان ولا يسمعون" (إر ٥: ٢١). لم يَصدُفْ أنْ وُجِدَ بينهم ذو حكمة كجملئيل ليردّهم إلى رشدهم، كما فعل هذا الأخير عندما دافع عن الرسل (أع ٥: ٣٤-٣٩)، وأنقذهم من الحكم المبرم، لذلك وقع الحكم بالإعدام على إسطفانوس، وسيلقى بالتالي المصيرَ نفسه الذي كان قد لقيه العديد من الأنبياء أصحاب الكلمة التي من عند الربّ، لكنّها كلمة غير سهلة القبول ولا تطاق (رج يو ٦: ٦٠). وعلى مثال هؤلاء الأنبياء صمد إسطفانوس بإيمانه ولأجل إيمانه، ولم يتزحزح قيد أنملة عن موقفه الرائع والمذهل، لا بل، عندما رآهم يزدادون حنقًا وغيظًا ويصرّون عليه بأسنانهم (آ ٥٤)، "حدّق إلى السماء، وقد ملأه الروح القدس، فرأى مجد الله، ورأى السماوات منفتحة، وابن الإنسان واقفًا عن يمين الله" (آ ٥٥-٥٦). هو الروح القدس مَن جعله يرى السماويّات، وتحديدًا مجد الله غير المنظور، ويسوع المنتصر إلى يمين الآب، في وضعيّة القائم من الموت ظافرًا (رج يو ٢٠: ١٤).

مقابل هيجان مَن كانوا يحاكمون إسطفانوس، وإطلاق الصيحات الغوغائيّة، وسَدّ الآذان، والانقضاض عليه، وجرّه إلى الخارج المدينة حيث راحوا يرجمونه (آ ٥٧-٥٨) بحنقٍ وغيظ وعدائيّة، كان إسطفانوس الأصلب من الصخر في إيمانه وثقته المطلقة بالله، يدعو الربَّ يسوعَ قائلاً: "إقبل روحي" (آ ٥٩؛ رج مز ٣١: ٦؛ لو ٢٣: ٤٦)، لا بل ذهب إلى أبعد من ذلك، إذ "جثا، وصاح بصوت جهور: يا ربّ، لا تقم عليهم هذه الخطيئة" (آ ٦٠). تذكّرنا صلاة إسطفانوس بما فاه به يسوع على الصليب: "وصرخ يسوع بصوت جهور: يا أبتاه، أستودع يديك روحي" (لو ٢٣: ٤٦؛ رج مز ٣٠: ٦).

نعم، إنّ خطيئتهم جسيمة جدًّا لأنّها عمليّةُ إعدامٍ خارج نطاق القانون؛ فلو كانوا متنبّهين لمتطلّبات هذا القانون، لساقوا إسطفانوس إلى أمام الحاكم الرومانيّ، لأنّ القرار بالإعدام كان محفوظًا له، تمامًا كما كان قد حصل مع يسوع. لقد ارتكبوا جرمًا فظيعًا لأنّهم كانوا خالين من روح الله ومن الإيمان به، فسفكوا دمًا زكيًّا؛ وهكذا قضى إسطفانوس، أوّلُ شهيدٍ مسيحيٍّ لأجل الإيمان. لقد مات ميتةَ نبيّ، كما حلّ بمن سبقه من أنبياء الربّ، وهذا ما كان يسوع قد أنبأ به: "أورشليم، أورشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها..." (لو ١٣: ٣٤).

كم هي رائعة وملفتة الموازاة بين استشهاد إسطفانوس رَجمًا وموت يسوع صَلبًا! تعزّى إسطفانوس بمشاهدته ابن الإنسان، وتعزّى يسوع قبله بظهور الملاك له (لو ٢٢: ٤٣)؛ استودع إسطفانوسُ روحَه بين يدي الآب، كما فعل يسوع من قبل من أعلى الصليب (لو

٢٣: ٣٤، ٤٦).

٩ — من يسوع المصلوب إلى إسطفانوسَ أوّل الشهداء

يشبِّهُ الروحُ القدسُ إسطفانوسَ بيسوع المصلوب، وهكذا تدوي على شفتيه صرخةُ الحبِّ واستيداع ذاته بالكلّيّة التي كان يسوع قد أصعدها إلى أبيه: "أبَتي، بين يديك أستودع روحي" (لو ٢٣: ٤٦؛ اقتباس عن مز ٣١: ٦). أمّا إسطفانوس فإنّه يتوجّه الآن إلى مَن كان هو قد بشّر به وشهد له، إلى يسوع، صارخًا: "ربِّ يسوع، تقبّل روحي" (آ ٥٩ب). "الربّ يسوع" (κύριε Ιησου) هي صيغة الألوهة، لأنّ "الربّ" (κύριος) هو يهوه، ربُّ العهد القديم، الذي، في آخر الأزمنة، أظهر ذاته أيضًا كالإنسان يسوع. إنّها أيضًا الصيغة الأقدم للمعموديّة لدى الجماعة اليهوديّة-المسيحيّة الأولى الناطقة بالآراميّة: "ولذلك أُعلِمُكم أنَّه ما مِن أَحدٍ، إذا تَكلَّمَ بإلهامٍ مِن روحِ الله، يقول: ملعونٌ يسوع، ولا يستطيعُ أَحدٌ أَن يقولُ: يسوعُ رَبٌّ، إلاَّ بإلهامٍ مِنَ الرُّوحِ القدس" (١ كو ١٢: ٣)؛ "فإذا شَهِدتَ بفمِكَ أَنَّ يسوعَ رَبٌّ، وآمَنتَ بقلبِكَ أَنَّ اللهَ أَقامَه مِن بينِ الأَموات، نِلتَ الخلاص" (رو ١٠: ٩).

يشبّه الروحُ القدسُ بالكلّيّة إسطفانوسَ بالربّ يسوع، أيضًا في الوداعة، في الكرم المطلق، في مسامحة قاتليه. كان المسيح يسوع على الصليب قد وجّه إلى الآب الطلبة الخلاصيّة الأسمى: "أيّها الآب، إغفر لهم، لأنّهم لا يدرون ماذا يعملون!" (لو ٢٣: ٣٤). وطلبة إسطفانوس الأخيرة وجّهها مرّة أخرى إلى يسوع ربّه قائلاً: "أيّها الربّ يسوع، لا تُقِم عليهم هذه الخطيئة!" (آ ٦٠أ). إنّ لوقا هو المدوّن الرائع لكلمات يسوع المصلوب (التي يهملها الإنجيليّون الآخَرون)، ولكلمات إسطفانوس، أوّل الشهداء، والأوّل في الشهادة، والعظيم في الإيمان.

كلمة الشهيد الأخيرة هي مرفوعة إلى يسوع الربّ والديّان، تمامًا كما يعلنه بطرس في قيصريّة أمام كورنيليوس وخاصّتِه: "هذا (المسيح الربّ) أقامه الله ديّانًا للأحياء وللأموات" (أي للقدّيسين وللخطأة؛ أع ١٠: ٤٢ب). سيروي متّى عن الرؤية العظيمة التي أعلن عنها الربّ، عن مجيئه الأخير كونه ابنَ الإنسان ومَلِكَ المجد، الذي سيدين عالم البشر وفق الأعمال التي صُنِعَت له بالذات (مت ٢٥: ٣١-٤٦).

"وما إن قال إسطفانوس هذا (= الكلمة) حتّى رقد" (٧: ٦٠ب) بالقداسة ورُفِعَ بالمجد. إنّ هذا الكلام قويّ ومعبّر إلى أقصى حدّ، لأنّه يصف ثمرةَ الإيمان والآلام والاستشهاد،

والمجد السماويّ، ومشاهدة وجه الآب ووجه المسيح يسوع قاهر الموت والقائم ظافرًا في مجد أبيه.

خاتمة

في معارضة عنيفة ومرعبة، كان شاول، ومعه القَتَلَةُ، مصرّين على إزالة إسطفانوس من خلال وضع حدٍّ لإيمانه الذي راح يزعزع جبال الكراهية والحقد والبغضاء. لكنّ الربّ يصغي دومًا إلى صدّيقيه وأبراره. لقد حصلت طلبة إسطفانوس على المغفرة لقاتليه؛ لذا سيصبح شاول "بولس" بدوره، وعلى خطى أوّل الشهداء، "رسولاً وشهيدًا".

في أع ١٥: ٥؛ ٢١: ٢٠، بين "عشرات الآلاف من العبرانيّين الذين آمنوا، وكلّهم كانوا غيورين للشريعة"، لم يَدَعِ الربُّ الكلّيُّ القدرة والرحومُ أحدًا من فريق القتلة خارجًا، بل دعاهم جميعًا، إلى جانب إسطفانوس ومعه، إلى مشاهدة وجهه، وجه الصلاح الإلهيّ.

هذه هي ثمرة إيمان إسطفانوس الذي شابه الربَّ يسوع في الكثير من المواقف والأقوال، ألا وهي أنّ إيمانه البطوليّ وشهادتَه واستشهادَه جعلت الكثيرين يقبلون الربّ يسوع ويؤمنون به، ويشاهدون السماوات مفتوحةً، ويسوع القائم من الموت في مجد أبيه.

مراجع

شارل ليبلاتنييه ، **سفر أعمال الرسل**، تعريب أيوب شهوان، دار بيبليا للنشر، عنكاوا، العراق ٢٠١٥. **قاموس الكتاب المقدّس**، دائرة المعارف الكتابيّة المسيحيّة.

مجموعة من الباحثين، **أعمال الرسل**، تعريب بولس الفغالي، دار المشرق، بيروت ١٩٨٧.

BOISMARD M. E., « Le martyre d'Étienne (Ac 6, 8 – 8, 2) », *RScR 69* (1981) 181-194.

BROWN F., *A Hebrew and English Lexicon of the Old Testament*, Clarendon Press, Oxford 1979.

CADBURY H. J., "The Hellenists", *Beginnings* 5:59-74.

JOHNSON Luke Timothy, *The Acts of the Apostles*, Sacra Pagina, The Liturgical Press, Collegeville, Minnesota 1992.

MOULE C. F. D., "Once More, Who were the Hellenists?", *ExpT* 70 (1958-5) 100-102.